

الفصل الثالث

الإسلام والحرية العلمية

١ - دعوة الإسلام إلى التفكير:

إن الإسلام يعتمد في دعوته على تفكر العقل، لأن في الكون نظاماً عجيباً يدل على وجود خالق له، فيكون الإيمان به عن اقتناع بوجود هذا النظام العجيب في الكون، وعن اقتناع بوجود إسناده إلى خالق عالم مريد قادر على خلقه، وإذا كان هذا هو الأصل في الدعوة الإسلامية، فإنه لابد أن يعطى العقل حرية كاملة في هذا الفكر، ليصل فيه إلى ما يصل في حرية واختيار، ولا يصح أن نقيده بطريق معين من تفكيره، وبنتيجة معينة يصل إليها منه، لأننا إذا قيدناه بهذا كان مجبوراً عليه، ولم يكن له حرية واختيار فيه.

وقد رسم الإسلام لدعوته طريق التفكير في الإيمان بها، من بدء الدعوة إلى منتهائها في حياة النبي ﷺ، بل إلى ما شاء الله أن تقوم هذه الدعوة بعد وفاته، لأنه طريقها المرسوم في كل الأجيال، إلى أن تنتهي هذه الحياة، وتأتي الحياة التي يحاسب فيها كل إنسان على عمله فينقطع عهد أخذ الناس إلى الإيمان بالتفكير، إذ يؤخذون إليه بالمشاهدة والعيان، ويرى كل إنسان جزاء ما قدمه من إيمان أو كفر، فيذعن عن مشاهدة وحس، ولا يكون هناك مجال

لنظر وتفكر، أو لكفر وجحد، لأن دلالة الحس والمشاهدة لا مجال فيها لشيء من ذلك.

وإنما رسم الإسلام لأمته هذه الدعوة وطريق التفكير في الإيمان بها من مبدئها إلى منتهاها، لأن الله تعالى أراد لها البقاء، فلم يأخذها بمعجزة حسية يقطع بها عذرها، فلا يكون أمامها إلا المبادرة إلى الإيمان بها، ولا يكون لها حرية واختيار معها، بل تكون أمام أمرين لا خيار في غيرهما لها: فإما إيمان فنجاة من آية الهلاك التي يرسلها الله معجزة حسية لرسولها، وإما كفر فهلاك لها بهذه المعجزة.

نعم لم يشأ الله لهذه الأمة أن يأخذها بمثل ما أخذ به من قبلها من الأمم، لأنه أراد أن ينهى عهد الرسالات برسول يكون خاتم الرسل، وبشريعة تكون خاتمة الشرائع، لأنها تكون صالحة لكل زمان ومكان، فلتبقى لها أمتها إلى ما شاء الله أن تبقى، ولتأخذ في شريعته بطريق العقل في كل أمورها الدنيوية والأخروية، لتنهض إلى ما قدر لها من الكمال في دنياها وأخرها، وتفتح لغيرها من الأمم باب النهوض في الدنيا، لأن الرسول الذي بعث لها لم تكن بعثته رحمة لها وحدها، وإنما بعث رحمة للناس كافة، وهداية لشعوب البشر جميعاً، فإذا قصرت أمته في النهوض الذي أراده لكل الشعوب في كل أنحاء الأرض، قامت أمة أخرى بأعباء هذا النهوض حتى لا يرجع الناس القهقري، ولا يكون هناك نكسة بعد فتح باب النهوض لهم، وحاشا للإسلام أن يخص أمته

بما خصت به أمة اليهود نفسها، وإنما هو طريق النهوض مفتوح لكل الأمم، من آمن به ومن لم يؤمن؛ لأن وسائل النهوض تؤدي إلى غايتها، ولا تتقيد بشخص من يأخذ بها، سنة الله في النشوء والارتقاء، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ونستخلص من هذا أن الطريق الأصلي للإيمان في الإسلام هو طريق التفكير، ولا يعيبه أن من يسلكه قد يصل إلى الخطأ ولا يصل إلى الصواب، فهذا شأن كل طريق إلى مقصد من المقاصد لأنه قد يعترض فيها ما يحول دون الوصول إلى مقاصدها فلا يصح أن يحسب عليها ما يعترض فيها، وإنما يجب أن ينظر إلى أننا إذا لم نسلك هذه الطرق لم يمكننا الوصول إلى هذه المقاصد، وعلى هذا الأساس نظر الإسلام إلى طريق التفكير، فإن الإنسان إذا لم يتفكر لم يمكنه الوصول إلى الإيمان أصلا، وإذا فكر أمكنه الوصول إليه، فليكن هو الطريق المعول عليه فيه ولتحتمل بعض الحالات التي تعترضه فلا تجعله يوصل إليه، لأن عدم الوصول إليه فيها يرجع إليها، ولا يرجع إلى الطريق الذي اعترضت فيه.

وبعض الناس كالصوفية يسلك طرقا أخرى في الوصول، كطريق العبادة والرياضيات الدينية التي يسلكونها، وهي طرق خاصة بهم اختطوها لأنفسهم، فلا يصح أن يعول عليها مثل طريق التفكير الممهّد للناس كلهم، ولم تشرع العبادات في الإسلام طريقا للوصول، وإنما هي آداب أخذ الله الناس بها، لما فيها من السعادة والهناء لهم في دنياهم وأخراهم.

ولهذا سلك إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام طريق التفكير في الآيات ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨ من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

وفى هذا الطريق يبين لنا إبراهيم عليه السلام أن من يسلكه قد ينحرف هنا أو هناك، ولكن هذا الانحراف محتمل فيه لأنه عارض غير ذاتي، فلا يعترض فيه دائماً، وإذا اعترض فكثير من الناس يتخطاه بتوفيق الله تعالى، ومن لا يتخطاه يكون العيب في نفسه، لا في الطريق الذي وصل به كثير غيره.

وقد جاءت الدعوة إلى طريق التفكير على أساليب متعددة في القرآن الكريم، فيذكر الله تعالى مثلاً في سورة النحل ما خلق من الإنسان والأنعام والخيول والبغال والحمير وما فيها من آياته، ويذكر ما أنزل من السماء من ماء لنا منه شراب ومنه شجر، وينبت به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب من كل ثمرات، ثم يختمه بقوله في الآية ١١ من هذه السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة النحل.

ثم ينتقل من هذا إلى ذكر ما سخر لنا من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، ويختمه بقوله في الآية ١٢ من هذه السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة النحل.

ثم ينتقل من هذا إلى ذكر ما ذرأ لنا في الأرض مختلفاً ألوانه، ويختمه بقوله في الآية ١٣ من هذه السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ سورة النحل.

وبعد أن تمضى آيات هذه السورة على ترتيبها يعود فيذكر في الآية ٦٥ منها أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ثم يختمه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سورة النحل. أية ٦٥ أى سماع تفكر وتعقل لأن مجرد السماع من غير تعقل وتفكر لا فائدة فيه، ولا جدوى منه.

وأشبه هذا فى غير هذه السورة من القرآن الكريم كثير.

ومن هذا أن يذكر القرآن الكريم أسم القلب واللب بدل أسم العقل ويسند إليهما من معنى التفكير والتعقل ما يسنده إليه، كقوله تعالى في الآية ٤٦ من سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

ومن إسناد التفكير والتعقل إلى الأبواب قوله تعالى في الآية - ١٩٠ - من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١١٠).

ولا شيء فى إسناده التفكير والتعقل إلى القلوب والألباب لأنه يراد منها العقول، إذ قلب كل شيء باطنه، والإنسان يتركب من جزء ظاهر هو الجسم، وجزء باطن هو النفس، وهى مركز العقل، على أن المعروف فيما بين الناس أن محل العقل هو المضغة المعروفة باسم القلب، قد جرت على هذا أساليب اللغة، جرى على أساليبها القرآن الكريم، فلا يؤثر فى هذا اختلاف العلماء فى محل العقل: هل هو القلب أو الدماغ أو غيرهما؟ لأن اللغة لها أسلوبها، والعلم له طريق آخر غير الأسلوب، فلا يكون هناك منافاة بينهما.

ولا شك أن فيما ذكرنا من الآيات القرآنية تنويهاً بشأن من يتفكر ويتعقل، وتنويها بشأن أصحاب القلوب والألباب، وهى العقول، لأن من يتفكر ويتعقل هو الذى يرجى منه أن يتنبه لما تنبيهه وهذه الآيات له، من الإيمان بالله تعالى، ومن الإيمان بما أنزله على رسله ﷺ، فإذا لم يتوصل بهذا إلى علم دينى استفاد منه علما دنيوياً، والعلم الدنيوى مطلوب فى الدين مثل العلم الدينى، لأن الدين يطلب للناس سعادة الدنيا والآخرة، وما لا يدرك كله لا يترك كله، والعلم الدنيوى لا يقل شأنه عن العلم الدينى.

٢ - دعوة الإسلام إلى العلم:

ومن الطبيعى أن يدعو الإسلام إلى العلم بعد دعوته إلى التفكير، لأن التفكير نتيجة العلم والمعرفة، الغرض الذى يدعو الإسلام إلى

طلب العلم، هو الغرض الذى يدعو إلى طلب التفكير، والغاية التى تقصد من طلب العلم، هى الغاية التى تقصد من طلب التفكير، لأنه لا فرق فى هذا بينهما. فالعلم إنما يطلب فى الإسلام لأن من شأنه أن يوصل إلى الإيمان بالله تعالى، العلماء هم الذين يمكنهم الوصول إلى هذا لا الجهلاء.

ولهذا يكون العلم - كالتفكير - مطلوباً أولاً لذاته. فإنه إنما يصح الإيمان بطريقه لأنه هو الذى يوصل إليه عن حرية واختيار. وهما شرط فى صحة الإيمان. ولا حرية ولا اختيار إلا إذا اتخذ العلم طريقاً مطلقاً. وسار الإنسان فيه بنفسه يهتدى بهديه وحده. فإذا وصل فيه إلى الإيمان بالله تعالى فبتوقيفه له. ولا يصح إكراهه على شىء بلا تدبر أو تفكر، وإلا كنا متناقضين فى جعله مختاراً أولاً ومكروها أخيراً! الذى يليق بدل هذا التناقض إكراهه من أول الأمر. وكما لا يقيد الإسلام العلم الذى يطلبه بطريق معين ولا بنتيجة معينة، بل يطلبه مطلقاً وصل إلى ما يريد أو لم يوصل، لا يقصره على أن يكون من العلم الدينى، بل يطلب العلم مطلقاً دينياً أو دنيوياً، لأن كلا منهما متمم للآخر عنده، وإن كان بعض أصحاب العلوم الدنيوية لا يرون ذلك، ولا يعترفون إلا بالعلم الدنيوى، فالإسلام لا يقيدهم بما يراه، له فى هذا رأيه ولهم رأيهم.

على أن الإسلام يقصر سلطانه على العلوم الدينية، فلها عنده أصولها التى تستمد منها، وإن كان للعقل سلطانه فيها أيضاً، لأن

مسائلها تستمد من نصوصها بالاجتهاد، والاجتهاد وظيفة، فهو الذى يستنبط مسائل هذه العلوم من أصولها، وهو مناط التكليف فيها، حتى ورد فى هذا من الأثر:

(لا دين لمن لا عقل له).

أما العلوم الدنيوية فلا شأن لسلطان الإسلام فيها، وإنما السلطان فيها للعقل وحده، حتى لا يتحكك^(١) بها رجال الدين ولا يحدث واحد منهم نفسه أن يقف فى سبيلها باسم الإسلام، فيعوقها عن التقدم والنهوض، ويفرض نفسه على رجالها بغير حق، مع أنه لا شأن له بهم، وإنما له علومه ولهم علومهم.

ولأجل هذا ضرب النبى ﷺ مثلاً كريماً فى علم الزراعة من العلوم الدنيوية، فمعلوم أنه نشأ بمكة حيث لا زرع فيها يكون عنده بعض العلم به، وإنما كان أهلها يشتغلون بالتجارة بين الشام واليمن، فحذقوا التجارة ولم يحذقوا الزراعة.

فلما هاجر إلى المدينة انتقل من قوم حرفتهم التجارة إلى قوم حرفتهم الزراعة، لأن أهل المدينة كانوا أهل نخيل وغيره مما كانوا يزرعون، ولكن النخيل كان أكثر زراعتهم، فمر على قوم من أهل المدينة يؤبرون نخيلهم، أى يضعون طلع ذكور النخل فى طلع الإناث، فقال لهم: «لو تركتموه لصلح» فتركوه فلم يصلح كما كان يصلح بالتأبير، فذهبوا إليه يخبرونه بما حصل من فساد ثمر

(١) تحكك بالشئ: تحرش وتعرض له.

نخيلهم فأمرهم أن يعودوا إلى تأبيره كما كانوا يفعلون، وقال لهم: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» ليفصلوا بهذا بين علم الزراعة وغيره من العلوم الدنيوية وبين علم الدين وأحكامه ويكون لهم شأنهم في العلم بزراعتهم لا يرجعون إليه فيها، وإنما يرجعون إليه في أمور دينهم.

وقد يقول قائل: إن النبي ﷺ تعرض في ذلك لما لا يعنيه من أمور زراعتهم، لم يكن هناك داع إلى تعرضه له، ولا إلى ارتكاب هذا الخطأ فيه.

والجواب أنها كانت تجربة من النبي ﷺ أراد بها أن يوفر على أهل المدينة عناء الطلوع على النخل والنزول، وأن يقوم الريح بين النخيل بتوصيل ما في طلع ذكور النخيل إلى طلع الإناث، وللتجربة العلمية فائدتها في النهوض بالعلوم وفي السير بها في طريق التقدم، وهي اجتهاد من شأنه أن يصيب، ومن شأنه أن يخطئ، فيغتفر فيها الخطأ بجانب الصواب، ليمضي الاعتماد في النهوض بالعلوم، ولا تنقطع عنها لبعض من الخطأ يقع فيها.

وهذا مثل آخر ضربه النبي ﷺ في علم الطب، وكان هناك طبيب من أهل الطائف يعاصره، يقال له الحارث بن كلدة، تعلم الطب والفلسفة في مدرسة جنديسابور ببلاد فارس، ثم عاد إلى الطائف فاشتغل فيها بالطب، فكان النبي ﷺ يأمر أصحابه إذا مرضوا بالذهاب إليه، ولعله كان الطبيب الوحيد الذي درس من العرب

الطب دراسة علمية، وكانت بلاد العرب تعج بدجاجة الطب الذين لا يعتمدون فيه على الوسائل العلمية فأمره ﷺ لمرضى أصحابه بالذهاب إلى هذا الطبيب العالم دون دجاجة الطب اعتراف منه بقيمة هذا العلم من علوم الدنيا، بأن هذه العلوم لها رجالها الذين يرجع إليهم فيها، ولا يرجع إليه ولا إلى غيره ممن لا علم لهم بها، وممن لم يدرسوها دراسة علمية منظمة، وضعا لهذه العلوم فى نصابها الصحيح، حتى لا يتطفل عليها غير أهلها من رجال الدين أو غيرهم.

وقد روى عن أسامة بن شريك ؓ أنه قال:

«أتيت النبي ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يارسول الله أنتداوى؟ قال: تداووا، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم» رواه الجماعة، ورواية البخارى فى كتاب الطب. فقرن الفعل بالقول، حتى يكون الأمر فى علم الطب قولاً صريحاً، أنه علم بالداء، وعلم بالدواء وأن الدواء له أثره فى الشفاء، فلا يصح لرجل الدين أن يتمحك فيه بأن الأمر قضاء وقدر، ليقعد المرضى عن البحث عن الدواء، ويتكلموا على القضاء والقدر، وإنما هو علم الطب له رجاله الذين يرجع إليهم فيه، ولا يصح الرجوع فيه إلى غيرهم، ليصرفونا عن الرجوع إليهم باسم الدين أو غيره، والدين برىء من تصرفهم.

ومن دعوة الإسلام إلى العلم ما نوه به القرآن من شأن العلماء فهو تارة يحكم بنفى التسوية بينهم وبين غيرهم، فيقول فى الآية ٩ من سورة الزمر: ﴿هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وتارة يقصر خشيته عليهم، فيقول فى الآية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

ومن دعوة الإسلام إلى العلم ما ذكر القرآن فيه أنه لا يقف عند حد ليطلب الناس الزيادة فيه على مر الأزمنة والأجيال، ولا يكتفوا بما وصلوا إليه فيها ولو عظم شأنه، وظنوا أنه لا شىء وراء ما وصلوا إليه.

وفى هذا يقول الله تعالى فى الآية ١١٤ من سورة طه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. ويقول تعالى فى الآية ٨٥ من سورة الإسراء: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ويقول تعالى فى الآية ٧٦ من سورة يوسف: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

إلى غير هذا مما يدعو إلى طلب العلم على إطلاقه، من علم دينى وعلم دنيوى، ومما لا يحدد الغاية منه، فلا يقتصر طلبه على أن يكون لأجل الوصول إلى الإيمان بالله تعالى فقط، بل يطلب لكل الغايات، من غايات دنيوية، وغايات أخروية، لأن فيه سعادة الدنيا والآخرة، كل من السعادتين مطلوب فى الدين، فلا يتقيد طلب العلم فيه بأن يكون لأجل إحداها دون الأخرى، ومن طلبه

لأجل سعادة الدنيا فقد أتى ببعض الواجب عليه، ولا يصح أن ينكر له فضله فيه، ولا أن يكون شأنه في الدين مثل شأن القاعد عن طلب العلم.

٣ - استلزام الدعوة إلى التفكير والعلم للحرية العلمية:

ولا يعقل كما سبق أن يدعو الإسلام إلى التفكير والعلم ثم لا يعطى من يدعوهُ إلى الحرية العلمية، حتى لا يكون هناك سلطان عليه لغير العقل والعلم، ولا يخشى في هذا بأس حاكم أو رجل دين، وإنما هو مجتهد في العلم، فليطلق له السراح فيه ليسيّر إلى الأمام، ولا يرجع إلى الوراء، بل ينهض بأمرته في دنياها ودينها، وليرسم لنفسه طريق البحث، ويرتاد بنفسه معالم الطريق، ولا يجعله كالأعمى يحتاج في طريقه إلى قائد، لأن من يتوكأ على غيره لا يأتي الدنيا بجديد، وإنما هو مقلد عاجز عن التجديد.

ولا يصح أن يخشى الإسلام التفكير وهو يدعو إليه، ولا أن يخشى العلم وهو يدعو إليه أيضاً، وليس فيه شيء يناقض العقل حتى يخشى التفكير، ولا شيء يناقض العلم حتى يخشى العلم، وإنما هو دين العلم والعقل، فليكن للعقل فيه سلطانه المطلق، وليكن للعلم فيه سلطانه المطلق أيضاً، وليعلن خضوعه لسلطانهما من غير خوف منهما، ليتفق الثلاثة على إسعاد المجتمع الإنساني في دنياه وأخراه، لا يناوئ واحد منها الآخر في ذلك، لأن هذا مما

لا يصح المناوأة فيه، ومتى اتفقت غاية الثلاثة فيه أمكن الجمع بينها في كل ما يشتبه فيه الأمر بينها، أو يكون في ظاهره خلاف يومهم تنافيا، وما أسهل الجمع في ذلك عند خلوص النية، وعند المرونة الدينية والعلمية.

٤ - سلطان دليل العقل على دليل النقل في الإسلام:

لقد فتح الإسلام للعلماء باب الاجتهاد في الدين، فأعطى للعقل سلطانه على دليل النقل، يستنبط منه ما شاء من أحكام الدنيا والآخرة، ويدخل فيه ما يلزم من التأويل، يدخل فيه ما يلزم من التخصيص والتعميم ويدخل فيه ما يلزم من التقييد والإطلاق، ويدخل فيه كل ما يلزم غير ذلك من ضروب الاجتهاد، حتى يهيئه للحكم الذي يؤدي إلى ما اتفقا فيه من الغاية وهو سعادة الناس في دنياهم وأخراهم، وحتى لا يكون على الناس حرج في الدين، لأن الدين يسر لا عسر، وتسهيل لا إعنات، وإسعاد لا إشقاء.

وكان هناك من يأبى إعطاء العقل هذه السلطة على دليل النقل، ولو كان في ظاهر دليل النقل ما يؤدي إلى المستحيل الذي يمنعه العقل، بل كان منهم من يقول بهذا المستحيل جموداً على ظاهر هذا النقل.

ففي القرآن مثلاً نصوص يفيد ظاهرها التجسيم في ذات الله تعالى: مثل قوله في الآية ٥ من سورة طه:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥) ومثل قوله فى الآية ١٠ من

سورة الفتح:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. ومثل قوله فى الآية ١٦ من سورة ق:

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

فأفحش الناس فى الخطأ فتوهم فى ذات الله تعالى أنها جسم
يجلس على عرشه مثل جلوسنا، وله يد مثل أيدينا، وقربه منا
قرب مكانى كقرب الجسم من جسم آخر قريب منه.

وهناك مَنْ تورع عن القول بمثل ذلك التجسيم، ولكنه أخذ
بظواهر هذه النصوص، وأنكر أن تؤخذ بشيء من التأويل. فكان
يقول فى الآية الأولى: الاستواء معلوم، والكيف مجهول لا يعلمه
إلا الله تعالى، وهو على نحو لا يؤدى إلى التجسيم، ويقول فى
الآية الثانية: له يد لا كالأيدى. وفى الآية الثالثة مثل ما قال فى
الآية الأولى.

وهناك من يخالفون الفريقين فى الأخذ بظواهر النصوص،
يذهبون إلى تأويلها وصرفها عن ظواهرها، جمعاً بين دليل النقل
ودليل العقل، فيذهبون إلى أن معنى (استوى) فى الآية الأولى:
استولى. ويذهبون إلى أن اليد فى الآية الثانية بمعنى القدرة،
ويذهبون إلى أن قربه تعالى منا فى الآية الثالثة علمى لا مكانى.

وقام النزاع بين هذه الآراء إلى أن انتصر أخيراً مذهب الإمام
أبى الحسن الأشعرى، إذ أراد أن يجمع الفريقين على مذهب سواء،

فلا يمتنع من التأويل أصلاً مثل الفريق الأول، ولا يسرف في التأويل مثل الفريق الثاني، بل يذهب إلى التأويل إذا لم يكن منه بد، وهذا عند قيام الدليل العقلي القاطع على إرادة ظاهر النص، ولا يذهب إلى التأويل إذا لم يكن هناك دليل عقلي قاطع، بل كان هناك مجرد دليل عقلي ظني، فيكون الأولى إبقاء دليل النص على ظاهره، لأن الظن العقلي لا يغنى من العلم شيئاً.

وقد تقبل جمهور المتأخرين من المسلمين مذهب الأشعرى في ذلك. حتى صار الآن هو الذى يمثل مذهب جمهور أهل السنة، ولا يوجد إلا قليل منهم يجمد على مذهب القدامى منهم.

ولا شك إن إخضاع دليل النقل لدليل العقل فيه من الحرية العلمية كل ما تسعه هذه الكلمة من معنى، وما يعطى العلماء سلطة واسعة أمام الجامدين من رجال الدين، فلا يكون لأولئك الجامدين سلطان عليهم أصلاً، ولا يكون لهم أن يسلكوا سبيل التعسف معهم، وإنما هو قرع الدليل بالدليل، وما أضعف دليل الجمود أمام دليل التجديد.

نعم إنها حرية علمية واسعة في هذا الدين الحنيف، حتى إن بعض أنصار التجديد فى عصرنا يستكثرها على العلم، ويذهب إلى أن مسائل العلم تتغير، ومسائل الدين لا تقبل مثل هذا التغيير، ولو أخضعناها للعلم لتغيرت معه بتغير الزمن، وفقدت بهذا قداستها عند الناس، وهذه القداسة هى رأس مالها عندهم.

ولكنه لا محل لهذا الخوف على مسائل الدين، لأننا لا نحمل
منها على مسائل العلم إلا ما وصل الأمر فيها إلى حد القطع واليقين،
بخلاف ما يكون مبنياً منها على الظن، ولا شك أن المسائل العلمية
اليقينية لا تتغير بتغير الزمن لأنها من البداهة بحيث لا تقبل
هذا التغيير.
